ومع أنها تجهل بواعث قلقها، فإنها تعي إصابتها بهذه الحال، بل وتتساءل عن سببه بكل وضوح:

مالي يزعزعني ويعصف بي قلق عتيٌّ جائح الألم؟

هذا التزعزع، هذا الارتجاج، هو النتاج الأكيد لتمزق عميق يعاش في الداخل. فكلما كان الواقع أكثر ضغطاً على الشخصية كان الضمير أكثر ضغطاً على الأنا، وكلما اشتد هذا الضغط القسري الطابع تشكلت وتعمقت الشروخ والفجوات الناجمة عن الصراع الداخلي في سبيل تثبيت متطلبات الواقع الخارجي الاجتماعي.

بيد أن للقلق بعداً إيجابياً، فضلاً عن أن سمة مأساوية كونية للروح الذي لا يملك إلا أن يكون مضطرباً في عوالم الاغتراب. وفوق ذلك فهو، بوصفه، من أهم محفزات الدفاع عن الوجود، من شأنه أن يشحذ الذهن ويوظف الطاقة النفسية في الفاعلية، ولهذا فإنه في أساس الابداع، بلا مراء، ولا سيما الابداع الغني الذي لا يغتذي بشيء قدر اغتذائه بالأخيلة اللامرئية بالعين المجردة.

والآن، بعدما تبين لنا أن المحتويات الأساسية لشعر فدوى طوقان، في المرحلة الأولى، يمكن أن تتلخص بثلاث مقولات نفسية هي الخوف والصراع والقلق، أفلا يسعنا أن نطرح هذا السؤال: هل تشكلت هذه الحال النفسية المعكورة المضطربة بكل وضوح بمنأى عن الكارثة الفلسطينية؟ إن فدوى طوقان التي عاشت الكارثة عام ١٩٤٨ لا تكاد تعرض للكارثة أبداً. ولكن هذا الصمت نفسه دال، أو من شأنه أن يكون دالاً. وإني لاتساءل عن دلالته: هل تؤمن الشاعرة بأن الكارثة كانت أكبر من أن يقولها الشعر؟ هل أنساها انكفاؤها على الهم الذاتي الداخلي مجمل العالم الموضوعي، بما فيه المصاب الجلل، مصاب النكبة؟ أتراها من الكآبة في حال استغرقها فعزلها حتى عن الهم الوطني؟

وأياً ما كان جوهر الشأن، فلست أحسب أن قلقها الخبيء الكتيم وأن خوفها واضطراب بنيتها النفسية قد تشكل بمعزل عن الكارثة، إذ لا بد لمثل هذا الاعتكار من جملة عوامل كيما تنسجه على هذا النحو الثقيل الحضور، لا بد له من تراكمات مضطردة ومتنوعة المصادر كي يتمكن من التغلغل في بنية النفس حتى هذا الحد.

والآن، لا بأس في إطلالة تقويمية تلقى على نتاج هذه الشاعرة، ولا سيما على الاسلوب، في المرحلة الأولى، التي لا أراها إلا مرحلة أرهاص بشاعرة أكثر مما هي مرحلة نتاج شعري مرموقة.

على الرغم من أن المعجم يحاول أن يخدم أفكاراً تجريدية – نظراً لكونها أحوالاً نفسية ذاتية – فإنه يحتوي على قدر كبير من المفردات التجسيمية، ولكن هذه المفردات كثيراً ما تكون مشحونة بإيحاءات رومانسية. ثم إذ تحاول الصياغات أن تكشف الأزمة وكأنها، حصراً، أزمة وجودية، فإنها مع ذلك تحمل من المعاني النفسية الخفية ما يجعل الجملة بناء جمالياً إلى حد ما، فتعفى من أن تكون مجرد حامل للمعنى، أو مجرد مشجب تُعَلق عليه المشاعر، بل إن المعنى ليصبح – ولو أحياناً – ضرباً من المحايثة في